

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

الحصانة واليهودي الأفاق

— ١ —

ما أعرب هذا العلم علم المكروبات، وما أعجب ما كان من أمره في يوم وُلِدَ !

بدأ هذا العلم رجلٌ قماش لم يُشغف ثقافة مذكرة ، ومع ذلك كان أول راء رأى المكروبات ، ثم جاء كيميائي فأوجد للمكروبات مكانة ذات بال في خريطة الوجود ، وأرعب الناس منها وأرعد . ثم تلاه طبيب قرية ، فجعل من صيادة المكروب شيئاً منظماً قارب أن يكون علماً صحيحاً . وأراد فرنسي وألماني أن يتجوا بالأطفال من سم مكروب من أقتل المكروبات ، فجزرا في سبيل ذلك أعدادا لا تحصى من الخنازير النينية ومن الأرناب لو تراكت لبلت أ كواماً كالجبال . إن تاريخ سيد المكروب تاريخ ملي بالخاطرات الجميلة ، والايحاءات النادرة ؛ ولكن به كذلك كثير من الغباوات الدهشة ، والتناقضات المجنونة . ولا يختلف تاريخ علم المكروب في هذا عن تاريخ علم الحصانة immunity وهو العلم الذي لا يزال ناشئاً ، وبه تنفس لنا مناعة الانسان من المكروب ، فالذي بدأ هذا العلم ، على نحو ما ، هو رجلٌ باحث كثير الاحتياج ، قليل الاتزان ، ذو جنة تعاوده كثيراً

وكان هذا الرجل يهودياً يدعى ايلي متشينيكوف Elie Metchnikoff ، ولد في جنوب روسيا عام ١٨٤٥ ، وقبل أن يبلغ العشرين قال لنفسه : « إني ذو غيرة وذو مقدرة ، وقد حببني الطبيعة مواهب راجحة ، وأنا أطمح أن أكون بحائناً كبيراً » وذهب هذا الشاب إلى جامعة خركوف Kharkoff ، واستمار من بعض أساتذته مجرماً ، وكانت الجماهر عندئذ نادرة ، وأخذ ينظر فيها نظرات لم تكن دائماً بينة واضحة ، ومع هذا قام على

البحر قد يطن يوماً فينمر هذا الوطن القوي بما فيه ويصبح أترأ بمد عين

والسياسة البريطانية لا يمكن أن يفوتها مثل هذا الاعتبار الخطير الذي تنوء به الصحف البريطانية ؛ ولكن الظاهر أن عوامل أخرى تمل على السياسة البريطانية تشدها نحو بحث المسألة الفلسطينية ؛ فحين نعرف أن السياسة البريطانية قد منيت بالشل الذريع في محاولتها إحباط الفزوة الإيطالية للحبشة ، وأن ظفر الاستعمار الفاشستي يثير اليوم في انكلترا مخاوف خطيرة بالنسبة لمستقبل سيادتها في شرق افريقية ووادي النيل ، وكذلك بالنسبة لمواصلاتها الامبراطورية في البحر الأبيض المتوسط ؛ ونحشى انكلترا أن تساهلها نحو أماني فلسطين — وفلسطين تعتبر قاعدة حيوية في مواصلاتها الامبراطورية — قد يحمل على نوع من الضعف والتسليم ويمرض هيبتها الاستعمارية للانتفاض . وقد رأينا الندوب السامى في فلسطين برد على مطالبة العرب بوقف الهجرة الصهيونية باصدار تصريح جديد بمهاجرة أربعة آلاف وخمسمائة عائلة يهودية ، متجاهلاً بذلك أن طغيان الهجرة من أهم أسباب الثورة القائمة . هذا إلى أن نفوذ اليهودية في انكلترا يعمل عمله ؛ وقد رأينا زعيم الصهيونية الدكتور ويزمان يسارع بالعودة من فلسطين إلى انكلترا مندبداً الثورة الفلسطينية ؛ وقد كان لسامى هذا الزعيم دائماً أثرها في موقف السياسة البريطانية نحو فلسطين ونحو رعاية الوطن القوي اليهودي

على أن السياسة البريطانية لا يمكن أن تحتفظ طويلاً بهذا الموقف الشاذ ؛ ففلسطين تقف اليوم موقف الحسم ، وتصير على أن تبحث مطالبها وأمانها بين الانصاف ، ومن وزائها عطف الأمم العربية والاسلامية كلها ؛ وانكلترا تقدر بلا ريب مدى هذا العطف وآثاره ؛ وبحث القضية الفلسطينية بروح الانصاف لا يمكن أن يعتبر ضمناً أو تسليماً كما يريد أن يفسره غلاة الاستعمار ؛ أما الأصرار على تمكين اليهودية من أعناق فلسطين ، ودفع الشعب الفلسطيني إلى منحدر الثلاثى والفناء ، والاكتفاء برسائل الحان التحقيق فسياسة خطيرة ؛ ولا ريب أنها تعرض مراكز انكلترا في الشرق الأدنى ، وفي العالم الاسلامى كله لأشد الأخطار

وتفسده ، فقال لها : « إن أكبر همى أجده في دراسة البروتوبلازم و Protoplasm ، في دراسة مادة الجسم الحية . . . ولكن روسيا خاية من العلم والملاءة » . وعلى هذا ذهب سرءاً إلى جامعة فرتزبرج Würzburg بألمانيا ؛ فوجد أنه وصل قبل ابتداء العام الدراسي بستة أسابيع . فأخذ يبحث عن بعض الطلبة الروسيين فوجدهم ، ولكنهم لم يرجبوا به لأنه كان يهودياً ، فضاقت بنفسه مسالك الحياة ، وعاد راجعاً إلى بلده وهو يعتزم الموت . وكان في حقيقته بضعة من الكتب التي اقتناها ، وكان من بينها كتاب أصل الأجناس Origin of Species لصاحبه دارون ، وكان خرج إلى السوق حديثاً ، فقرأه ، وفي جرعة عقلية واحدة بلع كل الذي فيه ، وصار من أنصار نظرية النشوء الشديدين . ومن هذا الوقت دان بهذه النظرية إلى أن تهيأ له الوقت ليصطنع لنفسه من العلم ديانات جديدة يدين بها

نسى ما اختطه لهلاك نفسه ، وبدأ يخطط الخطط لأبحاث في هذه النظرية الجديدة ، وردد الليل ولكن لم ينمه لأنه أخذ يتخيل الخيالات عن ساحات واسعة قد امتلأت بطوائف الأجناس الحيوانية من الصرصور الصغير إلى الفيل الكبير ، ثم تخيل إلى جانبها حيا بالغ الصفر هو جدما الكبير الأبد

وكان هذا الانقلاب بدء حياة متشنيكوف الحق ، فانه عندئذ خرج يبحاج ويشاجر من معمل إلى معمل ، ومن روسيا إلى ألمانيا إلى إيطاليا ، ومن إيطاليا إلى جزائر هيليجو لاند Heligoland وأدام هذا الشجار والحجاج عشر سنوات ، واشتغل في بحث نشأة الديدان ، وآتهم لوكارت Leucart عالم الحيوان الملامة بسرقة بضاعته ؛ وكانت أصابعه لا تحسن العمل الدقيق ، وكان لا يرجي لها أن تتعلم إحسانه ، فذات مرة جاء بظايرة وضرب فيها بكفها يديه ضربة المستقل اليانس يريد أن يكشف في بطنها عن سرّ النشوء ، فلما أنجزه أن يعلم منه شيئاً رى بالذى نبتى من الزاحفة عبر المعمل . كان متشنيكوف على تقيض كوخ ولوفن هوك ، فهذان الرجلان العظيمان عرفا كيف يتلفان إلى الطبيعة فيسألانها عما يريدان وغازا منها بالجواب . أما صاحبنا فقرأ

كتباً في نظرية النشوء ، فألمته وحسته ، فأمن بها وأعلن إيمانه مسموعاً عالياً ، ثم جاء بعد ذلك يعالج التجارب لا ليمتحن بها عقيدته الجديدة ، بل ليفرضها على الطبيعة فرضاً ، وليدسها في حاقها لتلهما اغتصاباً . ولكن العجيب أنه أصاب

أثرها فكتب مقالات علمية طويلة ، وذلك قبل أن يعلم ما العلم وما كنهه وما جوهره ، وغاب أشهراً عن فصول الجامعة وعن دروسها ؛ ولم يكن لللب غاب ولكن للقراءة ؛ ولم تكن قراءة القصص والنوادر ، ولكن قراءة مؤلفات كبيرة في العلم مثل كتاب : « بلورات لأجسام زلالية » ، وغير ذلك كان يقرأ ككتيبات ونشرات لو اطلع عليها رجال الأمن لنفوه إلى مناجم سيربا ؛ وكان يسهر الليالي ، ويكرع جالونات من الشاي ، ويخطب رفقاه ، وهم أجداد بلاشفة اليوم ، خُطباً هائجة صاخبة جاحدة تنكر وجود الله حتى لقبوه « لا إله » ، وجاءت خاتمة السنة فقام إلى دروسه التي تراكت في الأشهر السابقة فحفظها عن ظهر قلب ؛ وكانت له ذاكرة أشبه شيء بأسطوانات الفونوغرافات منها بالمقل الانساني ، فجاز الامتحان وظهرت النتيجة فكتب إلى أهله يقول لهم إنه نجح وكان أول الناجحين ، وفوق ذلك نال وساماً من ذهب

وكان متشنيكوف شديد العجلة في أمره نفسه ، يود أن يسبق الزمن بها ، ويحملها على أشياء قبل أن يأتي أوانها . بحث بالمقالات العلمية وهو لا يزال في عقده الثاني ، وكان يكتبها في سرعة المالح بعد ساعات قليلة من تحرير مجهره على بقعة أو خنفاء ، ويصبح الصباح فيعود إلى مجهره ليراها مرة أخرى ، فإذا به يرى ما لم يكن رآه بالأمس فيسرع بالكتابة إلى رئيس تحرير المجلة يقول له : « أرجو ألا تنشر مقالة الأمس ، فقد وجدت نفسى مخطئاً . وأحياناً كان يرسل المقالة فلا تنشرها المجلة فيثور وينضب ويصيح : « إن الدنيا تجهل قدرى » ، ويذهب إلى غرفته يتأهب للموت وهو يصغر صغير اليانس الحزين : « لو كنت في صغر الحزبون ، لطويت جسمي في صدقي »^(١)

بكي وناح لأن أسانذته والناس لم يتقدروا مواهبه حق قدرها ، ولكن لم يفت ذلك في عضده ولم يستطع أن يضمض من أمله ، نفسى ما كان انتواه من قتل نفسه ، ونسى ما كان من ضيقه ووجع رأسه ، أنساه إياه حبه القيم لكل شيء حتى . ولكنه أفسد على نفسه الفرصة كلما أمكنته من إجراء بحث علمي قيم متواصل ، ذلك بأنه كان دائماً يشاجر أسانذته وينازع معلميه . وأخيراً كتب إلى أمه ، وكانت تؤمن به وتمطت عليه

(١) هذه أغنية مروفة ، والمزنون دويبية من اللافتريات البخوة

تحمل فوق ظهرها صدقتها وفيه تنكش عندما تريد Snail

قائلته ، ولكنها كانت أكبر مما تحتمله المدة فقاهها . وصرخ
مرة أخرى : « ما نفع هذه الحياة ! » ، واستحم استحمامة
ساخنة وخرج منها بتعرض عامداً الى الهواء البارد الطلق عسى
أن تصيبه من ذلك نيمونيا فتذهب بحياته ، ولكن يظهر أن
الآلهة الحكيمة المزاحة التي تقوم بتجهيز البحوث لهذا الكوكب
شاعت له غير الذي شاء لنفسه ، أبتت عليه الحاجة في نفسها .
وفي هذه الليلة عينها ساقته رجلاه الى حيث أبصر طائفة من
الحشرات كالنعام تدور وتدوم حول لهب مصباح . فاستوقفه
هذا المنظر ووقف يتأمله بتعجب ظاهر، وفم مغفور . صاح لنفسه :
« إن هذه الحشرات لا تمش إلا ساعات قليلة ، فليت شعري
كيف يستفاد بها للدرس نظرية بقاء الأصلح ؟ » . وبهذا عاد
فوصل من جديد تجاربه المقطوعة

حزن متشينيكوف على زوجه حزناً شديداً ، ووجد عليها
وجداً مبرحاً ، ولكن الأيام كانت سريعة في شفاء الوجد ولأم
الجرح العميق . وتعين أستاذاً في جامعة أودسا ، وفي هذه
الجامعة علم نظرية بقاء الأصلح ، وفيها وضح علمه ، وارتفع
قدره ، وزاد في الناس إجلاله . ولم تمض سنتان على وفاة زوجته
الأولى حتى التقي بفتاة في الخامسة عشرة ، في وجهها بشاشة ،
وفي قلبها ذكاء . وكان اسمها أولجا ، وكانت ابنة رجل ذي يسار ،
ونظرت اليه ، فأسرت عينها إلى قلبها ، قالت : « إن وجهه
كوجه المسيح في قدسيته ، لونه امتقاع ، وعليه سحابة من
كآبة » . ولم يمض طويل من الزمن حتى تزوجها

ومنذ هذا الزواج هدأت حياته كثيراً ، وقالت نداءاته لمزرائيل
كثيراً ، وأخذت يدها تعملان اجراء التجارب لتلحق بقلبه الذي
نضج قبل أوامه ، وأصبح العلم له ديناً ، وتعلق به إيماناً ؛ وأدخله
في كل أمر من أمور عيشه في حمس لم يسمع بمثله ، وأخذ يبد
أولجا يدخلها في هذا الدين علماً وفناً ، وعلمها حتى علم الزواج
وفنه ! وعبدت فيه ذلك اليقين الغرق الذي أعطاه العلم اياه ، ولو
أنها قالت بعد ذلك بسنوات كثيرة : « إن الطريقة العلمية التي
طبقتها زوجي في غير هواة على كل شيء ، جاز ألا نتخلق لنا إلا
شراً في تلك الساعة الخطيرة من حياتنا ، والنفس دقيقة الحس
في انتقالها من حال الى حال

في هذا أحياناً ، وعندئذ كانت إصابته ذات خطر كبير . ولم يكن
عندئذ يعلم شيئاً عن المكروب ، أعنى في آخر العقد الثامن من
القرن الماضي . ولكن الحاحه كالمجنون في إثبات أن الأصلح هو
الأبقى ، وأن الفاسد للذهاب ، هو الذي ساقه إلى تلك النظرية
البديعة الخلابه نظرية الحصانة التي تصف كيف يصد الانسان
هجمات الفانكات من المكروب . وهي نظرية صحيح بعضها برغم
مظهرها الخيالي الذي لا يدعو إلى التظامن إليها

كانت السنوات الخمس والثلاثون الأولى من حياته كثيرة
الاضطراب والصخب أشرف فيها على المهالك ، ولكنه سار من
طريقها الخطر على حسر ضيق نفذ به في آخر الأمر إلى الشهرة
الواسعة التي كانت تنتظره على شواطئ صقلية في البحر الأبيض
المتوسط . وتزوج قبل أن يبلغ الثالثة والعشرين لدميلا
فودورفتشي Ludmilla Feodoaovitch وكانت مسلولة حتى كان لا بد
من حملها في كرسيها إلى حيث يعقد زواجها . وتبع هذا الزواج
أربع سنوات مضت عليهما في أبأس حال وأكثرها استدراراً
للرحمة ، قضياها يجرّ بعضهما بعضاً عبر أوروبا يبحثان عسى أن
يجدا لذات الصدر دواء . وفي أثناء ذلك ، وفي أثناء تمريضه هذه
الزوجة الطيلة المسكينة تمريض عطوف حنان توتر عصبه وثقل قلبه
كان يحتطف سويماً يجري فيها تجارب يدرس بها تنشؤ بقى
النبات والأسفنجيات والدود والمقارب ، يريد بذلك أن يقع على
اكتشاف يهز الناس فتأنيه من ورائه أستاذية تدرّ عليه مالا
كثيراً . وهمس لنفسه وهو يكتب رسالته العلمية ، وهمس لها
وهو يبعث بالرسول ويدفع بالوسائط ويخطط الخطط ويحاور ويداور
في طلب الوظيفة ، قال : « إن البقاء ليس للأصلح ؛ وليس هو
الأكثر طيبة وخيراً ، وإنما هو للأشد مكرراً وللأنكى خبتاً

وماتت لدميلا . وكانت قضت أيامها الأخيرة تتخلص من
آلامها بالمرفين ، فاقتمس زوجها عادة المرفين منها ، ولما نفذ
تراب قبرها عن يديه قام عنه هاتماً بضرب في الأرض ، واخترق
أسانيا متوجهاً الى جنيفاً وهو يزيد كل يوم مقدار العقار الذي
يتماطاه ، وساءت عيناه أثناء ذلك وآلته ألكاً كبيراً . وما الباحث
في الطبيعة إذا لم يكن له عينان تبصران ؟ وصرخ : « ما الفائدة من
هذا العيش ! » ، وأخذ حزمة كبيرة من المرفين أيقن أنها لا بد